الصـــبر

خُلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا لعبادة الله ـ عـز وجـلَّ ـ بالابتـلاء ، قـال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسـان :٢] ، وهـذا الابتـلاء يكـون بالسـراء والضـراء ، بما يحب الإنسـان وبما يكره ، بالخير والشر ، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ :﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، والله ـ عز وجلَّ ـ يريد ويحب من عبده أن يقابل هذه الابتلاءات بالصبر عليها والشكر له ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقال رسول الله ـ ﷺ : « **الإِيمَانُ بِضْع وسبْعُونَ ، أَوْ بِضْعُ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إله إِلاَّ اللَّه ، وَأَدْنَاها إِمَاطَةُ الأَذَى عنَ الطَّرِيقِ ، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ** »[١] ، والإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية ، وهو يرجع إلى شطرين، فعل وترك ، فالفعل هو العمل بطاعة الله ـ عز وجلَّ ـ وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية ، إذاً فكل شعب الإيمان تقع تحت الصبر والشكر كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، وتفاضلُ المؤمنين في درجات إيمانهم يوم القيامة يرجع في الحقيقة إلى تفاضلهم في درجات صبرهم وشكرهم اللَّذان هما مجموع الإيمان .

قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّة لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَف مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِق أَوِ الْمَغْرِب لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ** ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاء لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ... **قَالَ : بَلَى وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِه رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ** »[٢] .

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

والصبر هو: حبس النفس ـ أي ضبطها ومنعها ـ وفق ما يقتضيه شرع الله ـ عز وجلَّ ـ ، وهو ثلاثة أنواع :

[١] الصبر على **طاعة الله** ـ عز وجلَّ ـ حيث إن الطاعة ربما تكون ثقيلة على النفس والبدن .

[٢]الصبر عن **معصية الله** ـ عز وجلَّ ـ بحيث يمنع الإنسان نفسه عن محارم الله .

[٣] الصبر على أقدار الله المؤلمة ـ **المصائب** ـ من الفقر والمرض والموت ونحوها ..... والنوعان الأول والثاني صبر **اختياري** ، للإنسان اختيار فيه ، أما النوع الثالث فهو **اضطراري** لا اختيار للإنسان فيه ، والاختياري أكمل وأفضل من الاضطراري ، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويأتي ممن لا يأتي منه الصبر الاختياري ، فربما يأتي به البَرّ والفاجر بل المؤمن والكافر ، ولذلك كان صبر يوسف الصدِّيق ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ عن مطاوعة امرأة العزيز ، وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكاره ، أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لمَّا ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبيد ، وكذلك صبر إبراهيم الخليل وموسى الكليم ونوح والمسيح عيسى ابن مريم ومحمد خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ـ ﷺ ـ كان صبراً على الدعوة إلى الله ـ عز وجلَّ ـ ومجاهدة أعدائه ـ جلَّ وعلا ـ ، ولهذا سماهم الله ـ عز وجلَّ ـ أولى العزم من الرسل، وهذا أكمل الصبر ، لذا أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يصبر صبرهم فقال : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ [الأحقاف :٣٥]،ونهاه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتشبه بيونس ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم :٤٨] ، فصَبَرَ رسولنا ـ ﷺ ـ حتى بلغ من الصبر أكمله ؛ وأعظم الناس اتباعاً للرسل أعظمهم صبراً في ذلك .

والصبر على المصائب ـ الصبر الاضطراري ـ نوعان :

الأول : ما لا صُنع للعبد الآدمي شيء فيه .

الثاني : ما أصابه من جهة آدمي مثله ، كالسب والضرب والظلم ، وغيرهم .

والنوع الأول للعبد فيه أربع درجات :

[١] درجة **العجز** وهو أن يتسخط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه ، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً و مروءة ، وهو أعظم المصيبتين .

[٢] درجة **الصبر** إما لله وإما للمروءة الإنسانية ، فلا يتحدث باللسان بما يسخط الله ، ولا يفعل بجوارحه ما يُغضب الله ،ولا يكون في قلبه على الله شيئًا أبداً ، صابر لكنه كاره لها .

[٣] درجة **الرضا** وهو أعلى من مقام الصبر ، وفي وجوبه نزاع ، والصبر متفق على وجوبه ؛ بأن يكون الإنسان منشرحًا صدره بهذه المصيبة ، ويرضى بها رضاءً تاماً وكأنه لم يصب بها .

[٤] درجة **الشكر** وهو أعلى من مقام الرضا ، فإنه يرى البلية نعمة فيشكر الله ـ عز وجلَّ ـ عليها ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى ما يكره قال : **الحمد لله على كل حال** ، فيشكر الله من أجل أن رتَّب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه ، ولذا قيل : المصاب من حُرم الثواب [١] .

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة،حيث روي الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لَما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه : « **استووا حتى أثني على ربي ـ عز وجلّ ـ ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضلّ لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مبعد لما قرَّبت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك**

---

(١) عدة الصابرين

ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم ، الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة والأمن يوم الخوف ،اللهم إني عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، اللّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة من الذين أوتوا الكتاب » .

والنوع الثاني للعبد فيه هذه الدرجات الأربعة السابقة ، ويضاف إليها أربعة أخر:

[١] درجة **العفو والصفح** ، لكن بعد المقدرة ، فقد كان السلف يكرهوا أن يُستَذلوا فإذا قدروا عفوا،كما في صحيح البخاري ـ باب الانتصار من الظالم .

[٢] درجة **سلامة القلب** من إرادة التشفي والانتقام ، مع فراغه من تذكر ألم الجناية كل وقت وضيقه بها .

[٣] درجة **شهود القدر** وأن الذي ظلمك وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك ، فالذي قدَّره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم،قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه ، فالمتسخط من أذى الحر والبرد ليس حازماً ، والكلُ جار بقدر الله ، وإن اختلفت طرقه وأسبابه .

[٤] درجة **الإحسان إلى المسيء** ، ومقابلة إساءته بإحسانك فإن ﴿ **اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

والصبر سبب في حصول كل كمال ، فأكمل الخلق أصبرهم ، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره ، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات ، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص ، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل ، ولهذا في دعاء النبي ـ ﷺ ـ الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد** » ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر ، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة ـ أعني اسم الصبر ـ لما تخلف عنه ، قال النبي ـ ﷺ : « **ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر** »[١] .

وقول الله ـ عز وجلَّ ـ ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠]، أي يعطى الصابرون ثوابهم بغير حساب ، لأن الأعمال الصالحة مضاعفة الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، أما الصبر فإن مضاعفته تأتي بغير حساب من عند الله ـ عز وجلَّ ـ وهذا يدل على أن أجره عظيم وأن الإنسان لا يمكن أن يتصور هذا الأجر لأنه لم يقابل بعدد بل هو أمر معلوم عند الله ولا حساب فيه[٢] ، والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويلزم نفسه به ويقيدها بقيده، فإن الجزع لا يرد قضاءً قد نزل،ولا يجلب خيراً قد سُلب،ولا يدفع مكروهاً قد وقع[٣] ؛ والصابر أعظم درجة من المنفق ؛ لأن المنفق حسنته مضاعفة إلى سبعمائة ، أما الصابر فيُعطى ثوابه بغير حساب من عند الله ـ عز وجلَّ ـ[٤] .

---

(١) صحيح الجامع .
(٢) شرح رياض الصالحين .
(٣) فتح القدير .
(٤) فتح الباري ـ بتصرف .

وأقدار الله ـ تبارك وتعالى ـ المؤلمة قد تكون سبباً في تكفير السيئات ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حزَن ، وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كفَّرَ اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه** » (١) .

وقد تكون سبباً لدخول الجنة إذا صبر العبد عليها واحتسب أجرها عند الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فعنْ عطاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ﷺ قالَ:« قالَ لِي ابْنُ عبَّاسٍ ـ ﷺ ـ : ألا أريكَ امْـرَأَةً مِن أَهْلِ الجَنَّة ؟ ، فَـقُلت بلَى ، قَالَ : هـذه المْرأَةُ السـوْداءُ أَتَت النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالَتْ : إِنِّي أُصْرَعُ وإِنِّي أَتكشَّفُ ؛ فَادْعُ اللَّه تعالى لِي ، قَالَ : **إِن شئْت صَبَـرْتِ ولك الجَنَّةُ ، وإِنْ شئْت دعَوْتُ اللَّه تعالَى أَنْ يُعافيَك** ، فقَالتْ : أَصْبرُ ، فَقَالت : إِنِّي أَتَكشَّفُ فَادْعُ اللَّه أَنْ لا أَتكشَّفَ ، **فَدَعَا لَهَا** » (٢) ، فأفاد الحديث أن الصبر على المرض سبب في دخول الجنة .

وقد تكون أيضاً سبباً في رفع الدرجات في الجنة فـ« **إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى** » (٣) ، و« **إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبلاءِ ، وإِنَّ اللَّه تعالى إِذَا أَحَبَّ قَوماً ابتلاهُمْ ، فَمنْ رضِيَ فلَهُ الرضَا ، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ** » (٤)، والرضا أفضل من الجنة،وما فيها لقول الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

لذا فإن « **أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ...** » (٥) .

---

(١) متفق عليه (٢) متفق عليه (٣) أبو داود.
(٤) الترمذي وحسنه. (٥) صحيح الجامع

الأسباب المعينة على الصبر عن معصية الله ـ عز وجل ـ :

[١] علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها ، فالله لم يحرّم المعاصي إلا صيانة لعبده عن الدنايا والرذائل ،كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره .

[٢] شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنَفَتها وحميتها أن تفعل ما يحطُّ ويضع من قدرها ومنزلتها عند الله وعند الناس .

[٣] قوة العلم بسوء عاقبة المعاصي وقبح أثرها وضررها في الدنيا ، من سواد الوجه وظلمة القلب وغمه وشدة قلقه ، وتمزق شمله وضعفه من مقاومة عدوه ـ إبليس ـ لعنه الله ، وذهاب المهابة من أعين الناس إلى مهانة وحقارة وهوان ، وبغض ،وحرمان حلاوة الطاعة و. . . . . . وفى الآخرة عذاب عظيم . . .أليم . . . مهين . . . مقيم .

[٤] قصر أمل العبد في الدنيا وعلمه بسرعة انقضائها،قال الله تبارك وتعالى ـ:
﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ [المؤمنون : ١١٢-١١٣] .

قال الشاعر :

عند الصباح يحمد القدم السُّرَي وفى الممات يحمد القوم اللقا

[٥] اجتناب فضول الطعام والشراب واللباس والنوم والاختلاط بالناس ، **فهذه الفضول** قد تجر العبد من المباح إلى الحرام .

[٦] لاستبقاء العبد نعم الله وإحسانه عليه ، فإن الذنوب تزيل النعم ، ولا تزال الذنوب إن لم يتداركها العبد بالتوبة ، تزيل عنه النعم الواحدة تلو الأخرى حتى تسلب النعم كلها ، **وأعظمها الإيمان** ـ فالمعاصي بريد الكفر كما يقولون ـ وقال أحد السلف : أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سَنة .

[٧]حياء العبد من الله ـ عز وجلَّ ـ فـ « **الحياء لا يأتي إلا بخير** »[(١)]، فإن

---

(١) صحيح الجامع.

العبد متى علم بنظر الله إليه وعلمه بما يفعل وكان حيياً استحيى أن يشرك معه غيره ، فيدعوه أو ينذر له أو يخافه أو يتكبر في نفسه أو على غيره أو.....
وبالجملة يستحيي أن يراقب غير ربه ويعصيه أبداً .

[٨] خوف العبد من الله وخشيته من عقابه في الدنيا والآخرة ـ فالجزاء من جنس العمل ـ و « **كما تدين تدان** » (١) .

[٩] قوة إيمان العبد بربه ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه ، فكلما قوى إيمان العبد قوى صبره عن معصية ربه ، وبالعكس .

[١٠] وهو من أقوى الأسباب ، محبة العبد لربه المقترنة بإجلاله وتعظيمه ، وكلما قويت محبة الله ـ عز وجلَّ ـ في قلب عبده المقترنة بإجلاله وتعظيمه كلما زادت طاعته لربه وقلت معصيته ، وبالعكس .

والصبر على طاعة الله ـ جلَّ وعلا ـ ينشأ من معرفة هذه الأسباب السابقة؛ ومن مصاحبة الصالحين،والبعد عن قرناء السوء،قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) ﴾ [الكهف : ٢٨] ، ومن معرفة ما تجلبه طاعة الله ـ عز وجلَّ ـ من العواقب الحميدة والآثار الجليلة في الدنيا والآخرة فـ ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧) ﴾ [النحل :٩٧]، و« **الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ** » (٢) .

ومن الأسباب المعينة على الصبر على البلاء :

[١]العلم بأن قدر الله ـ عز وجلَّ ـ سبق بوقوع هذا البلاء، قال الله ـ عز وجلَّ ـ: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ**

(١) صحيح الجامع (٢) متفق عليه.

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾[الحديد :٢٢-٢٣] فجزع العبد لا يزيده إلا بلاءً، و﴿ ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ، ومَا أُعْطِيَ أحَدٌ عطاءً خَيراً وأوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ ﴾ (١).

[٢] علم العبد بلزوم البلاء في هذه الدنيا ، بل الدنيا كلها دار ابتلاء ، وقد أكد الله ـ عز وجلَّ ـ على ذلك ، بل أقسم في أكثر من موطن من كتابه ، مثل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، وقال :﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت : ٢-٣] ، فهذا ابتلاء وفتنة نسبا إلى الله ـ عز وجلَّ ـ . . . وفى ذلك من الإيناس ما فيه ، لذلك فالابتلاء ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ أي جزء يسير ، وما دام الابتلاء من الله ـ عز وجلَّ ـ . . . فمن السهل على العبد ـ بمعونة الله وفضله ـ أن يتقبل البلاء راضياً ، أما قوله ـ عز وجلَّ ـ :﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، فالفعل هنا ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ ، ﴿ لَتَسْمَعُنَّ ﴾ مبنى للمجهول ، ومن معانيه أن يكون البلاء واقعاً من مخلوق،وإن كان الله هو المبتلي على الحقيقة فـ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ، و﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [الصافات :٩٦] ، فالأمر في هذه الحالة إذاً يتطلب التأكيد على أهمية الصبر ...بل المصابرة مع المخلوق إزاء غدره . . .وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وهو التأكيد الذي لم يستدعه السياق في سورة البقرة .

ومما يزيد العبد صبراً علمه بصبر نبيه ، **الصبر الجميل** ، على أذى المشركين

---

(١) البخاري.

والمنافقين ، بل أيضًا بمن يجهل عليه من المؤمنين ، بل إن الصبر من صفات الله رب العالمين فـ« **مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ** »(١) .

[٣] علم العبد أن هذا البلاء إنما وقع بذنبه ، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، فما سُلط على العبد ممن يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، ظاهرٌ له أو خفي عنه ، فإذا علم العبد ذلك، فأحوج ما يحتاج إليه هو الاستغفار من ذنبه والرجوع إلى ربه بالتوبة الذيِّن هما من أعظم أسباب دفع تلك البلية ، وإصلاح عيوبه التي هي سبب ذلك البلاء فـ« **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ** »(٢).

[٤] رجاء العبد من الله **تكفير سيئاته** بهذا البلاء ، ورجاء **جنته** ، **ورفع الدرجات** عنده،**بل وحبه** ـ جلَّ وعلا ـ لعبده بصبره ورضاه وشكره لربه على البلاء وأنَّه لم يكن في الدين ، وأنه أصغر من غيره،وأنه ما جاء ليهلكه ويقتله وإنما جاء ليمتحن صبره ويبتليه هل يصلح لاستخدامه وجعله من أولياء الله وحزبه أم لا؟ فإن ثبت العبد اصطفاه ربه واجتباه، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة : ٢٤] ، وإن انقلب على وجهه وانكفى على عقبيه طُرد وأُقصي ـ والمصيبة بُتراءٌ لها أجل ، لا بد أن تقلع فيه عن هذا وهذا ـ ولكن تقلع عن الصابر الشاكر بأنواع الكرامات والخيرات من ربه ، وعن الآخر بالحرمان والخذلان والطرد .

[٥] علم العبد أن هذا البلاء إنما هو دواء نافع ساقه الله « **الطبيب** » العليم بمصلحة عبده وهو الرحيم به ، والدواء مرٌّ فليصبر العبد عليه ولا يتقياه بالسُخط وشكوى الله إلى خلقه،بل يكن خُلُقه ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ [يوسف : ٨٣] ، ويشكو

(١) متفق عليه .
(٢) مسلم.

حاله إلى ربه ومولاه فقط ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ففي عقبي هذا الدواء من الشفاء والعافية من الذنوب والآثام والأمراض ، بل والفوائد الخفية ، ما لم تحصل بدون هذا البلاء ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] ، وقال ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] ، ومن لطف الله بعبده وكرمه وفضله عليه أنه ينزل مع البلاء يُسْرين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وَلَنْ يَغْلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ـ كما في البخاري ـ و« مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا ، إِلاَّ أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا »[1] .

[٦] علم العبد أن الله ـ عز وجلَّ ـ يربي عبده على السراء والضراء ، والنعمة والبلاء ، ليستخرج منه عبوديته في جمع تلك الأحوال ، فإن العبد على الحقيقة هو من قام بعبودية الله في كل الأحوال ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، **والشأن في إعطاء العبودية في المكاره** ، ففيها تتفاوت مراتب العباد ، وبحسبه تكون منازلهم عند الله ، أما عبد السراء والعافية فقط الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجه، فليس من العبيد الذين اختارهم الله ـ عز وجلَّ ـ لعبوديته،فلا ريب أن الإيمان الذى يثبت عند الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، فالابتلاء هو النار التي يُخرج الله بها الخبث من العبد فيبقى ذهباً خالصاً ـ بل ويطهره من كل صاحب سوء كان ينافقه لم يكن يعلمه من قبل ـ بل ويطهر الصف المسلم كله من الخبث فـ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ، لذا فلو علم العبد أن نعمة الله عليه بالابتلاء ليست أقل من نعمته عليه بالعافية

(١) مسلم.

لشغل قلبه ولسانه وجوارحه بشكره ، فاللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، و اللهم استرنا بعافيتك ولا تفضحنا بابتلائك ... بعفوك ومنّتك وكرمك ، فإنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا .

أيهما أفضل : الصبر على الطاعات أم الصبر عن المعصية ؟ :

هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية ، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنيئة ، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة ، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر ، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صوم يوم تطوعاً ونحوه ، فهذا فصل النزاع في المسألة ، والله أعلم(١) .

وأيضاً الصبر على طاعة الله ـ عز وجلَّ ـ يسهل الصبر عن معصية الله ـ عز وجلَّ ـ والصبر على أقدار الله المؤلمة ، ومع ذلك فالأنواع الثلاثة متلازمة ، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين ، بل كل منهما في وقته أفضل من الآخر في غير وقته (٢) .

ومن أعظم الصبر وأصعبه الصبر عن آفات اللسان ، وذلك لسهولة حركة اللسان وشدة الداعي إليه كما أخبر رسولنا الكريم ـ ﷺ : « **أكثر خطايا ابن آدم في لسانه** » (٣)، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان ، كالكذب والغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً ، والطعن فيمن يبغضه ومدح من يحبه ، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار وله نصيب من العلم والورع عن أكثر المحرمات ولا يستطيع ضبط لسانه(٤)، ولعل هذا هو السبب الذي جعل ضبط **اللسان والفرج** فقط من دون باقي جوارح الإنسان العديدة سبب في دخول الجنة،كما قال رسولنا الكريم ﷺ : « **مَنْ يَضْمَنْ لي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْن رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ** »(٥)، وقد كان من خُلُق النبي ـ ﷺ ـ طول السكوت،

(١) طريق الهجرتين (٢) عدة الصابرين . (٣) السلسلة الصحيحة.
(٤) عدة الصابرين . (٥) البخاري.

وعدم التكلم في غير حاجة ولا فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه[١].

أسباب منع وقوع البلاء ابتداءً أو دفعه إذا وقع :

[١] التوحيد وكثرة ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ :

التوحيد هو أعظم سبب لدفع البلاء ، كيف لا وهو السبب الأعظم في النجاة من نار يوم القيامة التي لا يوصف ألمها ؛ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من أمر الدنيا دعا به ففرّج عنه ، دعاء ذي النون ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾** »[٢] ، و« عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : علمني رسول الله ـ ﷺ ـ إذا نزل كرب أقول : « **لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين** »[٣] .

وقال رسول الله ـ ﷺ : « **ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ،ونور صدري ،وجلاء حزني ،وذهاب همي ،إلا أذهب الله ـ عز وجلّ ـ همّه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً** ، قالوا يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ، **قال : أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن** »[٤] .

و« **من قال حين يمسي : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ،ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي** »[٥] .

وأصاب أبان بن عثمان ـ رحمه الله ـ أحد رواة الحديث طرفٌ فالجٌ فجعل

---

(١) زاد المعاد (٢) صحيح الجامع (٣) أحمد.
(٤) صحيح الترغيب والترهيب (٥) صحيح الجامع

رجل ينظر إليه فقال له أبان : ما تنظر إليّ ؟ ، أما إن الحديث كما حدثتك ولكني لم أقله يومئذ ليمضي الله علي قدره [١] .

[٢] كثرة الصلاة على النبي ﷺ :

« فعن أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال : قلت يا رسول الله إني أُكثُر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ ، **فقال : ما شئت** ، قلت الربع ، **قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك** ، قلت : فالنصف ؟ ، **قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك** ، قلت : فالثلثين ؟ ، **قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك** ، قلت : أجعل لك صلاتي كلها ، **قال : إذن يكفى همك ويغفر لك ذنبك** » [٢] .

[٣] التوبة والاستغفار :

إن كانت الذنوب هي سبب كل بليَّة في الدنيا والآخرة ،فالإقلاع عنها والتوبة والاستغفار منها هم من أهم أسباب رفع البلاء ، وقد شُكي إلى بعض الصالحين بعض البلاء وقع للناس ، فقال : ما أرى ما أنتم فيه إلا بشؤم الذنوب ، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٣٣] وقال ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾** ﴾ [نوح : ١٠-١٢] و« **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً ، ومن كل هَمٍّ فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب** » [٣] .

[٤] الدعـــاء :

وهو من أقوى الأسباب في منع نزول البلاء ابتداءً ورفعه إذا نزل أو تخفيفه ، وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات :

(أ) أن يكون أقوى من البلاء فيمنعه ويدفعه ويرفعه .

---

(١) ابن ماجه ، وطرف فالج أي شلل نصفي طولي .

(٢) صحيح جامع الترمذي. (٣) ضعيف الجامع.

(ب) أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد لكنه لا يخففه وإن كان ضعيفاً ،وذلك **إما** بأن يدعو العبد بما لا يحبه الله ـ عز وجلَّ ـ **وإما** بسبب أكل الحرام ، **وإما** بسبب رين الذنوب على القلوب ، **وإما** لضعف القلب وعدم إقباله على الله وقت الدعاء ، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا أُلهمت الدعاء فالإجابة معه .

قال الشاعر:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلب ... من جود كفك ما عودتني الطلبا

(جـ) أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه ، فقد قال النبي ـ ﷺ : **« لا يغني حذر عن قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان ـ يتصارعان ـ إلى يوم القيامة »** [1] ، وفي صحيح الجامع أيضاً **« الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء »** وفي صحيح سنن ابن ماجه **« ولا يرد القدر إلا الدعاء .... »** وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو من الدعاء ما يشاء من القدر ؛ **والدعاء سلاح ، والسلاح بضاربه .**

وقد يكون البلاء من الله تعالى ابتداءً مثل ابتلاء أيوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وقول الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾** ﴾ [العنكبوت : ٦٥]، وقد يجريه الله ـ عز وجلَّ ـ على يد خلقه، كما قالت امرأة فرعون : ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التحريم : ١١]، وكما قال موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص : ٢١] .

---

(١) صحيح الجامع.

[٥] قراءة القرآن والرقية :

إن كان من المعروف والمجرَّب أن الكلام الطيب له أثر عجيب في راحة النفوس، فما الظن بكلام رب العالمين ـ جلَّ وعلا ـ!!! ، الذي فضله على كل كلام كفضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على سائر خلقه ، فكلام الله ـ عز وجلَّ ـ هو الشفاء التام من جميع الأدواء البدنية والقلبية ، بل جميع أدواء الدنيا والآخرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل:٨٩]، كما في رقية الصحابة للرجل الذي لُدغ بفاتحة الكتاب وهو في الصحيحين ـ وتسمى أيضاً الكافية والشافية ـ وفي المعوذات استعاذة بالله ـ عز وجلَّ ـ من كل مكروه جملة وتفصيلاً ، مما خلقه الله ـ تبارك وتعالى ـ من الأجسام والأرواح الخبيثة ، والقرءان هو النور الهادي والعصمة المانعة من كل سوء ، وكيف تقاوم الأدواء أيّاً كانت كلام ربِّ الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال الرواسي لصَدَعَهَا ، **فما من جنس مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا في القرآن الكريم شفاؤه**، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٥٧] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** (٨٢) ﴾ [الإسراء:٨٢] ، و﴿ **مِن** ﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فالقرآن كله شفاء،وقال ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ [فصلت : ٤٤] ، **أو سبيل للدلالة على دوائه والحمية منه**، ومن لم يشفه القرآن العظيم ـ كلام الله عز وجلَّ ـ فلا شفاه الله ، ومن لم يكفه فلا كفاه الله ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥١) ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

[٦] تقوى الله عز وجل والمسارعة إلى الخيرات وكثرة الأعمال الصالحة :

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، وقال جلَّ شأنه: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** (٩٠) ﴾[الأنبياء : ٩٠] وقال ـ جلَّ شأنه ـ: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ [الطلاق :٢] ، وهو مفهوم أيضاً من قول النبي ﷺ : « **إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ، ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى** »(١)، فلو كان العبد مجتهداً في الطاعات لما ابتلى هذه الابتلاءات ليبلغ المنزلة التي سبقت له عند الله ـ عز وجلَّ ـ.

[٧] حسن الظن بالله تبارك وتعالى مع الإحسان التام في العبادة والتوكل عليه:

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : « **أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله** »(٢) ، فمن ظن بالله خيراً وتوكل عليه ووثق به وعلق قلبه به هو فقط خوفاً ورجاءً لم يضره .

[٨] دفع الأذى عن المسلمين ابتداءً وتفريج كربهم :

قال رسول الله ـ ﷺ : « ... **مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ ...** »(٣)،وقال أيضاً: « **من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر** »(٤)، فالجزاء من جنس العمل .

[٩] الصدقة :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **صدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر ، وفعل المعروف يقي مصارع السوء** »(٥) .

---

(١) أبو داود. (٢) مسلم. (٣) صحيح الجامع.
(٤) أحمد ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع . (٥) ضعيف الجامع.

[١٠] الإيمان بقضاء الله وقدره والتسليم له ـ جل وعلا ـ :

وهذا المعنى قد يفهم من قول الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)** ﴾ [الصافات : ١٠١-١٠٧] ، وفي صحيح ابن حبان « **لا طيرة ، والطيرة على من تطير** » قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لا تضرُّ الطيرةُ إلا من تطيَّر ـ أي من تطير تطيراً منهياً عنه ، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٣] ، فهم قد فروا من الطاعون فأماتهم الله .

[١١] طاعة الله ـ عز وجل ـ والبعد عن العاصين وأماكنهم :

فالعاصي شؤم على نفسه وعلى غيره ، فلا يُؤمنُ أن ينزل عليه عذابٌ من الله فيعم الناس ، خصوصاً من لم ينكر عمله ، فالبعد عنه إذاً متعينٌ كما قالت أم المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ... **أنهلك وفينا الصالحون ، قال : نعم إذا كثر الخبث** »[١] ، و« قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه لمَّا وصلوا الحجر ديار ثمود : **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم** » وفي رواية أخرى « **لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ** »[٢] ، إذاً فليس هناك ما يسمى لعنة الفراعنة ولا لعنة غيرهم ! كيف وقد ماتوا ولا يستطيعون حراكاً ، بل هي لعنة الله على الظالمين والمحتفين بهم .

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح سُنن ابن ماجة.

[١٢] شكر الله ـ عز وجل ـ :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من فجئه صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً ،عوفي من ذلك البلاء كائناً ما كان بسم الله الرحمن الرحيم** »(١)، وعند الترمذي « **من رأى صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً ، إلا عوفي من ذلك البلاء كائناً ما كان ، ما عاش** » وقد روي عن أبي جعفر محمد بن علي ـ رحمه الله ـ أنه كان إذا رأى صاحب بلاء فتعوذ منه ـ يقول ذلك في نفسه ولا يُسمع صاحب البلاء .

[١٣] الصبر :

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ [البقرة :٤٥] ، وقال رسوله ـ ﷺ ـ : « **... وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ...** »(٢) ، و « **...النصر مع الصبر ...** »(٣) .

[١٤] التداوى :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً** »(٤) ، وأمر بالتداوى فقال : « **تداووا فإن الله ـ عز وجلَّ ـ لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داء واحد ، الهرم** »(٥) ، وقال : « **لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ** »(٦) ، وقال أيضاً : « **إن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله ، إلا السام وهو الموت** »(٧) .

ومنه التداوى بالطب الحديث .

ومن الأدوية النافعة : حبة البركة « قالت أم المؤمنين عَائِشَة ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة .
(٢) متفق عليه .
(٣) صحيح الجامع .
(٤) البخاري .
(٥) صحيح سنن أبي داود .
(٦) متفق عليه .
(٧) مسلم .

سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ : **إِنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ مِنَ السَّامِ**، قُلْتُ: وَمَا السَّامُ، **قَالَ الْمَوْتُ**»(١)، وقال: « **فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ السَّامَ** » (٢) ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَالسَّامُ الْمَوْتُ ، وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ .

وكذلك التلبينة فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **التَّلْبِينَةُ مَجَمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ** » (٣) .

وكذلك عسل النحل والاحتجام فـ« **الشِّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ : شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، وَكَيَّةِ نَارٍ ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ** » (٤) ، و« **إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ أَوْ هُوَ مِنْ أَمْثَلِ دَوَائِكُمْ** » (٥) .

وكذلك ألبان الإبل وأبوالها « فعَنْ أَنَس بن مالك - رضي الله عنه - أَنَّ نَفَراً مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلاَمِ فَاسْتَوْخَمُوا الأَرْضَ وَسَقُمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ : **أَلاَ تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا** ، فَقَالُوا بَلَى ، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا . . . » (٦) .

وكذلك ألبان وسمن البقر ، قال رسول الله - ﷺ - : « **ألبان البقر شفاء ، وسمنها دواء، ولحومها داء**» (٧) ، و قال أيضاً : « **عليكم بألبان البقر فإنها دواء ، وأسمانها فإنها شفاء ، وإياكم ولحومها ، فإن لحومها داء** » (٨) .

وكذلك ماء زمزم، قال رسول الله ﷺ : «**زمزم طعام طعم وشفاء سقم** » (٩) ، و « **ماء زمزم لما شرب له** » (١٠) .

ولا يجوز التداوي بما حرمه الله « فقد سأل أحد الصحابة النبي - ﷺ - عن الخمر فنهاه، ثم سأله فنهاه ، فقال له: يا نبي الله إنها دواء ، قال النبي - ﷺ - : « **لا**

---

(١) صحيح الجامع .

(٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) متفق عليه.

(٧) ، (٨) صحيح الجامع .

(٩) صحيح سنن أبي داود.

(١٠) صحيح الجامع.

ولكنها داء»[١]،وقال أيضاً:«إنها ليست بدواء ولكنها داء ـ يعني الخمر ـ[٢]»، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ[٣].

علامة سعادة العبد أو شقاوته بالابتلاء :

إذا ابتلى الله ـ عز وجلَّ ـ عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء وتلك المحن إلى ربه ومولاه وجمعه عليه وطرحه ببابه ، فهو علامة سعادة العبد وإرادة الخير به ـ والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت ـ فتقلع عنه حين تقلع وقد عُوض منها أجل عِوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه ، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضاً وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً ، فبهذا يتضح أن هذا الابتلاء وتلك المحن هي عين النعم من الله ـ تبارك وتعالى ـ وإن كرهها الطبع ونفرت منها النفس ـ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:٢١٦] ، وبلية هذا تطهير له ورحمة به وتكميل لدرجته عند ربه ـ عز وجلَّ ـ .

وإن لم يردُّه ذلك البلاء إلي ربه ـ جلَّ وعلا ـ ، بل شرد بقلبه عنه ، ونسى ذكر ربه ، والتضرع والتذلل بين يديه ، والتملق له والتوبة والرجوع إليه ، وتعلق بالخلق ، فذلك علامة شقاوته وإرادته الشر به، فهذا إن أقلعت عنه البلية رجع إلى الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء ، ورجع إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه ، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة له ونقص في حقه[٤] .

---

(١) البخاري .
(٢) صحيح الجامع .
(٣) البخاري .
(٤) طريق الهجرتين .

الفرق بين الإخبار بالحال والشكوى :

الشكوى هي الإخبار بالحال على وجه التضرر ، والعبد العارف بمقداره وبمقدار ربه إنما يشكو إلى الله وحده ، فيشكو خلق الله إليه ـ جلَّ وعلا ـ وأعلى منه رتبة من يشكو نفسه إلى الله ، فإنه من قبلها أوتى ، وبسببها سُلط عليه الناس ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ:﴿ **وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] ،وقال جلَّ شأنه : ﴿ **وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩]،وقال ـ جلَّ في علاه ـ :﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥]،فيستعطف ربه ويتملق إليه ويسترحمه مثل قول أيوب عليه السلام: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وقول يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٦] ، وقول سيد ولد أدم ـ ﷺ ـ : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني ، إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل عليَّ غضبك ، أو تنزل عليَّ سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك** »[1] ، فالشكوى إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ لا تنافى الصبر بحال من الأحوال ، بل الله ـ تبارك وتعالى ـ يحب ذلك من عبده ويكره منه التجلد عليه .

أما الجاهل فيشكو الله إلي الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ، ولو عرف الناس لما شكا إليهم ، **والشكوى** هذه قد تكون بلسان المقال ، وبلسان الحال وهى أقبحهما ، **فالمراتب ثلاثة :أعلاها** أن

---

(١) ضعيف الجامع.

تشكو نفسك إلى الله ، **وأوسطها** أن تشكو خلقه إليه ، **وأخسها** أن تشكو الله إلى خلقه .

قال الشاعر:

وإذا عَرَتْك بلية فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلمُ
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تَشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحَمُ

أمَّا الإخبار بالحال للمخلوق، فإن كان ذلك للاستعانة للإرشاد أو المعونه أو التوصل إلى زوال الضرر ، أو الإخبار على وجه التاسي به في صبره ، لم يقدح ذلك في صبره ، كإخبار المريض مثلاً للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن يقدر على نصرته بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه [1] .

---

(١) الروح ـ بتصرف .

الشكر

الشكر هو استعمال نعم الله ـ تبارك وتعالى ـ في طاعته ـ سبحانه ـ ، فيظهر ذلك على **اللسان** بحمد الله والثناء عليه وتمجيده والدعوة لدينه ، وعلى **القلب** بشهود نعم الله ومحبته ـ سبحانه وتعالى ـ ، وعلى **الجوارح** بالانقياد لله ـ تبارك وتعالى ـ وطاعته والدفاع عن محارمه، ولا يستعملها في معصية الله ، قال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣]، وأعظم الشكر شكر الله ـ عز وجلَّ ـ على نعمة التوحيد والإيمان، وامتلاء القلب بمعرفته سبحانه وحده ، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ـ ﷺ : « **كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ** ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، **قَالَ** : **أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً** » .

ويكون الشكر ـ أيضاً ـ على المكاره من الأقدار المؤلمة ، كظماً للغيظ،وعدم الشكوى إلا إلى الله ، كما قال يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف : ٨٦] ، ورعاية للأدب مع الله بالرضا بقضائه وقدره فـ« **أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحمَّادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء** » [١] ، وليس هذا فحسب بل « **إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمَّادون** » [٢] .

ولو تذكرنا نعم الله علينا لوجدناها تغمرنا من فوقنا ومن تحت أقدامنا ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٨) ﴾ [النحل : ١٨] ، صحة في بدن ، وأمن في وطن ، وغذاء وكساء ، وهواء وماء،ولدينا الدنيا ونحن لا نشعر ، نملك الحياة ولا نعلم ، عندنا عينان ولسان وشفتان ويدان ورجلان ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن] ، هل هي مسألة سهلة أن نمشي على أقدامنا وقد

(١) ضعيف الجامع.
(٢) صحيح الجامع .

بترت أقدام ؟ ، وأن نعتمد على ساقينا وقد قطعت سوق ؟، أحقير أن تنام أعيننا وقد أطار الألم نوم الكثير؟ ، وأن نملأ معدتنا من الطعام الشهي وأن نتكرع من الماء البارد ، وهناك من عكر عليه الطعام ونغص عليه الشراب بأمراض وأسقام ؟، أخي تفكر في سمعك وقد عوفيت من الصمم ، وتأمل في نظرك وقد سلمت من العمى ، وانظر إلى جلدك وقد نجوت من البرص والجذام ، والمح عقلك وقد أنعم عليك بحضوره ولم تفجع بالجنون والذهول (١) .

وأخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل شكره هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده بالإيمان فقال : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** (٥٣) ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، وأخبر أن الشكر هو الحكمة والتي من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً فقال ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ لقمان : ١٢] .

وقسم سبحانه الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (٣) ﴾ [الإنسان : ٣] ، وقال نبيه سليمان ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ لما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده : ﴿ **هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل : ٤٠] ، وهذا كثير في كتاب الله ـ عز وجلَّ ـ يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده؛ وعلَّق ـ سبحانه وتعالى ـ المزيد من الإنعام على عباده على شكرهم ، والمزيد منه ـ تبارك وتعالى ـ لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، فقال الله ـ عز وجلَّ ـ : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** (٧) ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ووقَّف ـ سبحانه ـ كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله : ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن**

---

(١) لا تحزن .

فَضْلِهِ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وقوله في الإجابة :﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام :٤١]، وقوله في التوبة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١٥]لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ أطلق جزاء الشكر فقال ـ جلَّ وعلا ـ:﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥]، ولَمَّا عرف عدو الله إبليس مقام الشكر وأنه **من أجل المقامات وأعلاها** عند الله ـ تبارك وتعالى ـ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، ووصف الله ـ سبحانه ـ الشاكرين بأنهم قليل من عباده ، فقال ـ تبارك وتعالى ـ :﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣]، فتأمل أخي اللبيب الفرق ! .

وأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها، فقال :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨] ، فهذه غاية الخلق ، وقد صرَّح ـ سبحانه ـ بأن غاية أمره وإرساله الرسول ﷺ في قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة : ١٥١-١٥٢] .

حمد الله سبحانه وتعالى :

وحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ هو الإخبار بجميل صفاته ، سبحانه وتعالى ، على وجه الحب له ، وهو نوعان :

الأول : حمده ـ سبحانه وتعالى ـ على أسمائه وصفاته .

والثاني : حمده ـ سبحانه وتعالى ـ على آلائه ونعمائه .

فالأول: وهو حمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أسمائه وصفاته ينقسم أيضاً إلى نوعين من الحمد :

(أ) حمد الأفعال.

(ب) حمد الذات والأسماء والصفات .

(أ) **حمد الأفعال** : أي أن الله ـ عز وجلَّ ـ يستحق الحمد على كل أفعاله في عباده وخلقه ، فإن نفس الإنسان قد خلقها الله تبارك وتعالى جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ،والشر الذي يحصل لها نوعان : شر عدمي ، وشر وجودي ، **فالشر العدمي** كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات والكمالات ، **والشر الوجودي** كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة ، وهذان الشَّران كل منهما من لوازم وجود الآخر ، فإن الإنسان إذا لم ينشغل بالحق انشغل بالباطل ، وهذا من خلقه ـ سبحانه ـ الذي يُحمد عليه ، لأن في وجودها من الحكم والغايات التي يحمد عليها ـ سبحانه ـ أضعاف ما في عدمها ، لأجل ما يحصل للنفس من الخيرات من أجل وجود هذا الشر الذي لم يكن هذا الخير ليوجد في عدم وجود هذا الشر ، من توبة للعاصي على معاصيه وما يحصل له من انكسار للقلب وخضوع وذلة بين يدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ والذي ما كان ليحصل إلا بوقوعه في هذا الذنب ، ولو تغير الحال وقلنا لم لا يكون الإنسان مجرد من النقائص والمعايب لكانت النفس البشرية على غير هذه الحال التي هي عليها ولكانت أي شيء غير النفس البشرية، لأن المخلوق لو لم يكن ضعيفاً محتاجاً فقيراً لما كان محتاجاً للخالق العلي الكبير ، ولكان مستغنياً عن كل شيء ، ولتجرد عن صفة المخلوق إلى صفة الخالق

وأيضاً من أفعال الله التي فيها من الحكمة والقدرة في الخلق ما يعجز القلب واللسان عن وصفها خلق الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده ، وإنضاج ثمارهم وأقواتهم،وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير ، وفيها من المنافع والمصالح ما

فيها ، كم تؤذى مسافراً وغيره بحرها ، وكم تجفف من رطوبة ، وكم تعطش حيواناً ، وكم تحبس عن مصلحة ، وكم تُنَشف من مورد وتحرق من زرع ، ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة ، فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير ، وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه .

وقد خلق الله ـ جلَّ وعلا ـ عالمين علوي وسفلي ، ولكل منهما من الأرواح العلوية والسفلية ما يناسبه من الخلائق ومن الأعمال والطبائع ، وقد خلق سبحانه وتعالى لكل من المحلين معمور بأهله وساكنيه بحكمة بالغة وقدرة قاهرة ، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها ، قال الله تبارك وتعالى :﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء : ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به ، كما يقول الناس كل إناء بالذي فيه ينضح ، ومن الأرواح السفلية ما هو خبيث وأقرب إلى طبائع البهائم، وربما طبائع البهائم أطيب وأقرب إلى الخير من هذه الأرواح ، فإذا أرادت إحدى هذه الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين ، ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا اختار لحاشيته وخاصته سفلة الناس التي تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا لا يصلح للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم، ملك الملوك ، في داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى ، الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم ، فكل هذه الأفعال وإن بدت لنا غير مفهومة ولا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بها تفصيلاً؛ فيكفينا الإيمان بما نعلم ونشاهد منها ، ثم نستدل على الغائب بالشاهد ، ونعتبر بما علمنا على ما لم نعلم .

وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] ، فإنه

ضعيف البنية ، ضعيف القوة ، ضعيف الإرادة ،ضعيف العلم، ضعيف الصبر ، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الخدور ، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده ، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه ، وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي يحمد عليها الرب ـ سبحانه ـ ويثنى عليه بها وهو موجب حكمته وعزته ، ولله ـ سبحانه ـ الحكمة البالغة .

وأيضاً لولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس،ومنعها من خوضها ومن شهواتها المحرمة محبة لله وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه ، فالشأن كل الشأن في محبة الله ومحبة ما يحبه مما قد يكون صعباً وشاقاً على النفس مما لا يلائمها ، فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته أو يحبه من أجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والرياسة و... فإن أعطى منها رضي وإن منعها سخط وعتب على ربه،وربما شكاه،وربما ترك عبادته ، فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاصة عبيده الذين هم عبيده ، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له ، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرته ، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم لأجل مرضاته ، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم فيرضى بمفارقتهم ومشاققتهم وإيثار موالاة الحق عليهم ، فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار .

ولله ـ سبحانه ـ الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به وعلى ما لم يخلقه مما لو شاء لخلقه ، وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته ، وهو ـ سبحانه ـ سبقت رحمته غضبه وكتب

على نفسه الرحمة وأحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنع ، وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله في ذلك ـ سبحانه ـ أعظم حكمة مطلوبة ، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها ، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم ـ سبحانه ـ هو من الحكمة .

وهو ـ سبحانه وتعالى ـ المحمود على ما خلق وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم ، وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء :٤٤] .

والمؤمنون يعلمون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنعم عليهم بالطاعات وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه ، وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة وأنهم هم جُنَاتها وهم الذين اجترحوها،ولا يحمّلونها على القضاء والقدر ، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر ، وطاعة وعصيان ، وكفر وإيمان ، وأن مشيئة الله ـ سبحانه ـ محيطة بذلك كإحاطة علمه به ، وأنه لو شاء ألا يعصى لما عصى، وأنه تعالى أعز وأجل من أن يعصى قسراً ،والعباد أقل من ذلك وأهون، وأنه ما شاء الله كان ، وكل كائن فهو بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ومن لم يكن فلعدم مشيئته ـ سبحانه وتعالى ـ .

(ب) حمد الذات والأسماء والصفات :

وأما حمد الذات والأسماء والصفات ، فأسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ كلها حسنى ليس فيها اسم سوء ، وأوصافه كلها صفات كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة ، وله المثل الأعلى

في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، موصوف بصفات الكمال ، منزه عن الشبيه والمثال ، ومنزه عمَّا يضاد صفات كماله ، فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِنة والنوم والسهو والغفلة المضادة للقيومية ، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه ، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء ، موصوف بالعدل منزه عن الظلم و . . . . وبالجملة فإنه محمود على كل شيء ومستحق للحمد كله ، فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق وغير حي ، وله الحمد كله واجب لذاته ، فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً وربّاً وقادراً .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ محمود على كل شيء ، وبكل ما يحمد به المحمود التام ، وإن كان بعض خلقه يُحمد أيضاً كما يُحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم ، فذلك من حمده ـ تبارك وتعالى ـ بل هو المحمود الأول بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من حمد فإنما نالوه بحمده هو ، فهو المحمود أولاً وأخراً ، وظاهراً وباطناً ، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ له الحمد التام الكامل الذي لا يكون لأحد إلا لله ، ليس له فيه شريك ، وهو المحمود على كل حال ، وكيف لا يكون محموداً وهو العزيز الحكيم القدير ، فإن العزة تتضمن القوة ، ولله القوة جميعاً ،وله كمال القدرة ومطلقها ،فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه

ولهذا خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ النوع الإنساني أربعة أقسام :

أحدها : لا من ذكر ولا أنثى وهو خلق أبيهم آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ .

الثاني : خلقه من ذكر بلا أنثى كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثى أو يشتمل عليها بطن .

الثالث : خلقه من أنثى بلا ذكر كخلق المسيح عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ .

الرابع : خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثى ، وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وكمال حكمته ، وأن الأمر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمر طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال ، وأنه ليس إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وطبيعة تفعل ما تشاء .

والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك ، وهو أيضاً من موجبات الحمد ، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمه ، وأيضاً فإن مخلوقاته هي موجبات أسمائه وصفاته ، فلكل اسم وصفة أثر لابد من ظهوره فيه واقتضائه له .

فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها ، وكذلك أسماء الله تعالى أسماء مدح ، فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح،وقد وصفها الله ـ سبحانه ـ بأنها حسنى كلها فقال :﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال ، فإنه ـ سبحانه ـ يعلل أحكامه وأفعاله بأسمائه ،ولو لم يكن لها معنى لما كان التعليل صحيحاً كقوله جلَّ وعلا :﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾** ﴾ [نوح :١٠] ، وقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾** ﴾ [البقرة:٢٢٦] ، فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضي الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه ـ والجزاء من جنس العمل ـ فكما رجع إلى التي هي أحسن،رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة ،وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، فلو كانت أسماء بلا معنى لها لم تدل

على ذلك ،كما في قوله ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣] ؛ فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له (١) .

والنوع الثاني : حمده ـ سبحانه وتعالى ـ على آلائه ونعمه :

وهذا النوع الثاني تأتي به الخليقة جمعاء برها وفاجرها ، مؤمنها وكافرها ، وذلك من جزيل مواهبه،وسعة عطاياه،وكريم أياديه،وجميل صنائعه،وحسن معاملته لعباده ، وسعة رحمته بهم ، وبره ولطفه وحنانه،وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين ، وإغاثة الملهوفين ، ورحمته للعالمين ، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه ، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها ، وصرفها بعد وقوعها ، ولطفه ـ تعالى ـ في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألطاف وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال ، وهدايته خاصته وعباده إلى سبيل دار السلام ، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين ، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم ، وذكرهم قبل أن يذكروه ، وأعطاهم قبل أن يسألوه ، وتحبب إليهم بنعمه مع غناه عنهم ومع تبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه .

ومع هذا كله اتخذ لهم داراً وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعونهم إليها ، ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضى

---

(١) طريق الهجرتين ، جلاء الأفهام – بتصرف.

منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جداً بالإضافة إلى بقاء دار النعيم ، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشراً ، وان أنابوا واستغفروا أن يغفر لهم ، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات ، وذكَّرهم بآلائه وتعرَّف إليهم بأسمائه ، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحساناً لا حاجة منه إليهم ، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلاً منه عليهم،وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه ، ونصحهم بأحسن النصائح ، ووصاهم بأكمل الوصايا ،وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال ، ووسّع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرَّفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، وخاطبهم بألطف الخطاب ، وسماهم بأحسن أسمائهم كقوله ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، وقوله ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقولـه ـ جـلَّ شأنه ـ: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ ... وقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة :١٨٦] ، و...

ويخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف،كقوله :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] ، وقوله ـ جلَّ شأنه ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ [فاطر: ٣] ، وقوله ـ تبارك وتعالى ـ:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر : ٥] ،

وقوله ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ [الانفطار :٦-٧]، وقوله ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ۝٥٠ ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فتحت هذا الخطاب إني عاديت إبليس وطردته من سمائي، وباعدته من قربى إذ لم يسجد لأبيكم آدم ، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم ، فليتأمل اللبيب موقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح .

وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطاب الله ـ جلَّ وعلا ـ لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة،وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجلّ العلوم والمعارف، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ:﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ ﴾ [الزمر:٧]، وقال ـ جلَّ شأنه ـ :﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، وقال ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] ،وقال ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝٢٨ ﴾ [النساء : ٢٦- ٢٨]، فبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ لهم الجهالات التي نسبها إليه من لا يعرفه حق معرفته ، ولا قدره حق قدره ، من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة وتعذيبهم أن شكروه وآمنوا به ، وخلق السماوات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية ، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم ولا ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعرر

بهم، كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات: ٥٦ـ٥٧] ، فأخبر أنه لم يخلق الجن والأنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح، كقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] ، وقال جلَّ في علاه : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] ، ولمَّا أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦] ، وقال ـ جلَّ شأنه ـ في الأضاحي والهدايا : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] ، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، يقول ـ سبحانه ـ إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه ـ سبحانه وتعالى ـ حاجة، ولا يوجب له حمداً ، بل هو الغنى بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته ، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائده عليكم[١] .

ومن أعظم أنواع الحمد ، حمد الله ـ عز وجلَّ ـ على جماله ، وهو حمد خواص الخلق ، وكلهم حمده على صفة من صفاته ، وأتمهم حمداً من حمده على كماله وجلاله وجماله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته ، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب ـ سبحانه ـ لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس ، ويكفي في جماله أنه لو كشف

---

(١) طريق الهجرتين .

الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه ، ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته ، فما الظن بمن صدر منه هذا الجمال ! .

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً ، والقوة جميعاً ، والجود كله ، والإحسان كله ، والعلم كله ، والفضل كله ، ولنور وجهه أشرقت الظلمات ، كما قال النبي ﷺ : « **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة...** »(١) ، وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه ، فهو سبحانه نور السموات والأرض ، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره .

ومن أسمائه الحسنى « **الجميل** »(٢)، وجماله سبحانه يشمل: **جمال الذات، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، وجمال الأسماء**، فأسماؤه كلها حسنى ، وصفاته كله صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة ، وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره ، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه الله من عباده ، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار، محجوب بستر الرداء والإزار ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه « **الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ...** »(٣) ، ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء ، فإنه ـ سبحانه ـ الكبير المتعال ، فهو ـ سبحانه ـ العلي العظيم .

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حجب الذات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال(٤) .

---

(١) ضعيف الجامع .
(٢) مسلم.
(٣) صحيح سنن أبي داود.
(٤) الفوائد ـ بتصرف .

فالعبد يترقى من **معرفة الأفعال** إلى **معرفة الصفات** ، ومن معرفة **الصفات** إلى معرفة **الذات** ، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات .

ومن هنا يتبين أنه ـ سبحانه ـ له الحمد كله،وأن أحداً من خلقه لا يحصي ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه وحده يستحق أن يُعبد لذاته ، ويُحب لذاته ، ويُشكر لذاته ، وهو ـ سبحانه ـ يحب نفسه ويثني على نفسه ويحمد نفسه ، ومحبته لنفسه وحمده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو في الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد ، فهو ـ سبحانه ـ كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه،وهو ـ سبحانه ـ كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله، فكل أفعاله حسنة محبوبة ، وليس في الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو ـ سبحانه ـ ، وكل ما يُحب سواه فإن كانت محبته تابعة لمحبته ـ سبحانه ـ بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة وإلا فهي محبة باطلة ، وهذه هي حقيقة الإلهية ، فإن الإله الحق هو الذي يُحب لذاته ويحمد لذاته ، فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه ، وإنعامه ، وحلمه ، وتجاوزه ، وعفوه ، وبره ، ورحمته ؟! .

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله ، فيحبه ويحمده لذاته وكماله ، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيحبه لإحسانه وإنعامه ، ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعاً ، وكما أنه ليس كمثله شيء ، **فليس كمحبته محبة** .

وهو ـ سبحانه ـ يحمد نفسه بنفسه ، ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا ، فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه ، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً ، والمسلم مسلماً ،والمصلى مصلياً،والتائب تائباً، فمنه ابتدأت النعم وإليه انتهت ، فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده ، وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح ، وهي من فضله وجوده ، وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم

أثابه عليها وهي من فضله وجوده وهو ـ سبحانه ـ غني عن كل ما سواه بكل وجه وما سواه فقير إليه بكل وجه ، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات ، فإن ما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع ، وقول رسول الله ـ ﷺ ـ « **إن الله جميل يحب الجمال** »(١) ، يدخل فيه بطريق العموم الجمال في كل شيء ، في **الأقوال والأفعال والأخلاق واللباس والهيئة** ، وقوله ـ ﷺ ـ : « **إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده** »(٢) ، **فالله يحب من عبده أن يعرفه بالجمال الذي هو وصفه ، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه** .

وقلة أهل الشكر في العالمين تدل على أنهم **خواص الله** ـ تبارك وتعالى ـ ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] .

فالشكر جامع لجميع مقامات الإيمان ،وهو أعلى المقامات إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وهو خلاصة العبودية لله ـ تبارك وتعالى ـ ، فهو يتضمن الرضا والحب والتوكل والإنابة والإخبات والخشوع والرجاء و...و... و يتضمن أيضاً الصبر من غير عكس ، وهناك فرق بين أن كلاً من الشكر والصبر مستلزم للآخر ، وبين تضمن الشكر للصبر من غير أن يتضمن الصبرُ الشكرُ ، **وشكر الخاصَّة** على الإيمان والتوحيد وقوت قلوبهم وامتلاؤها بحب ربهم ومولاهم(٣) .

الفرق بين الغنى الشاكر والفقير الصابر :

التحقيق أن يقال أفضلهما أتقاهما لله ـ تبارك وتعالى ـ ، فإن فُرِضَ استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يفضِّل الناس بالفقر أو الغنى، كما لم يفضِّل بالعافية والبلاء،وإنما فضَّل بالتقوى ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال ﷺ : « **لا فضل لعربي على عجمي ، ولا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، الناس من آدم ، وآدم من تراب** »(٤) ،

---

(١) ، (٢) صحيح الجامع.

(٣) مدارج السالكين ـ بتصرف .

(٤) مسند أحمد ، ورجاله رجال الصحيح.

والتقوى مبنية على أصلين الصبر والشكر ، وكل من الغنى والفقير لابد لهما منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : إذا كان صبرُ الفقير أتم وشكرُ الغنى أتم فأيهما أفضل؟ ، قيل أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله ، ولا يصح التفضيل بغير هذا أبداً ؛ فإن الغنى قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني في شكره ، فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل، ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر،ولا بالعكس، لأن الصبر والشكر مطيتان للإيمان ولزيادته ـ لابد منهما ـ فالواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل ، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين .

ولله درُّ القائل :

لَسْنَا وإن كُنَّا ذَوِي حَسَبٍ ... يوماً على الأَحسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كما كانت أَوَائِلُنا ... تَبْنِي ونَفعلُ مثل ما فَعَلوا

والعبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية، فإن كان في **نعمة** ففرضها الشكر والصبر ، أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها ، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها ، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى، وإن كان في **بلية** ففرضها الصبر والشكر أيضاً ، أما الصبر فظاهر وأما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية ، فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما عليه عبودية في النعماء ، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا ، فعلم أنه لا إنفكاك له عن الصبر ما دام سائراً إلى الله [١] .

ومن هنا يعلم أن الغنى الشاكر والفقير الصابر كلاهما محتاج إلى الشكر والصبر ، وأنه قد يكون صبرالغنى أكمل من صبر الفقير ، كما قد يكون شكر الفقير أكمل ، فأفضلهما أعظمهما شكراً وصبراً ، فإن فُضِّل أحدهما في ذلك

---

(١) طريق الهجرتين.

فُضِّل صاحبه ، فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به ، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به ، فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر ، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر .

فإن قيل أيهما أفضل من يختار الغنى للتصدق والإنفاق في وجوه البر أم **من** يختار الفقر والتقلل من الدنيا ليبعد عن الفتنة ويسلم من الآفة ويرفهُ قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا ، **أم من** لا يختار لا هذا ولا ذاك بل يختار ما اختاره الله له فلا يعينُ باختياره واحداً من الأمرين ، وقد كان اختيار النبي ـ ﷺ ـ تابعاً لاختيار ربه ـ عز وجلَّ ـ ، فلما خيَّره ربه ـ عز وجلَّ ـ بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً ، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً ، اختار ما اختاره الله له ، فكان اختياره في جميع أموره تابعاً لاختيار الله له ، ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذاك الوقت ، ووفّى هذا المقام حقه ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصّديق ـ رضي الله عنه ـ ، فلم يكن له اختيار في سوى ما اختاره الله له ـ ﷺ ـ[(١)] .

والله مع نعمه التي لا تحصى على عباده يشكر القليل ، ويثيب عليه الكثير ، فـ « **ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة** »[(٢)] ، وفي رواية « **وإن عظمت** » حتى « **إنَّ اللَّه لَيرضي عنِ العبْد يأْكُلُ الأكْلَةَ فيحْمَدُهُ عَلَيْهَا ، ويَشْرب الشُّرْبَة فيحْمَدُهُ عليها** »[(٣)] ، والأكْلَةُ والشُّرْبَةُ اسم مرَّة يعني بعد كل أكلة وكل شربة ، وكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يسمي الله قبل كل لقمة وكل شربة ، ويحمده ـ سبحانه وتعالى ـ بعد كل لقمة وكل شربة ، ويقول أكل وذكر .

قال الشاعر:

أوليتني نعماً أبوء بشكرها ... وكفيتني كل الأمور بأسرها

فلأشكرنَّك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنَّك أعظمي في قبرها

(١) عدة الصابرين . (٢) صحيح الجامع . (٣) مسلم.

الفرق بين الشكر والحمد :

والفرق بين الشكر والحمد لله ـ تبارك وتعالى ـ ، أن **الشكر** يكون باللسان ثناءً وحمداً وتمجيداً ، وبالقلب خضوعاً واستكانة ومعرفة ومحبة ، وبالجوارح باستعمالها في طاعة الله ـ عز وجلَّ ـ وكفها عن معاصيه ـ سبحانه وتعالى ـ ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ [سبأ : ١٣] ، وهذا الشكر يكون بسبب نعم الله وإحسانه على عبده .

أما الحمد فيكون باللسان والقلب فقط ، ويكون بسبب استحقاق الله ـ تبارك وتعالى ـ للحمد ابتداءً على أسمائه وصفاته وأفعاله ؛ فكلها حُسنى ، ويكون أيضاً بسبب نعم الله وإحسانه على عبده ، فنقول : حمدنا الله ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته وعلى عدله وسمعه وبصره ولا نقول : شكرنا الله على ذلك .

فائدة :

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى :١٣] ، وقال رسوله ـ ﷺ ـ : « **إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده** »[١] ، وقال يعقوب ليوسف ـ على نبينا وعليهما الصلاة والسلام : ﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴿٥﴾ ﴾ [يوسف : ٥] ؛ وورد عن نبينا ـ ﷺ : « **استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود** »[٢] ، والفقيه هو من آتاه الله رشده فعلم متى يتحدث بالنعم ومتى يكتمها ؛ **فيتحدث** بالنعم عند من يعلم أنه يحبه ويحب له الخير ويدعو له بالبركة ، **ويكتمها** عند من يعلم أنه لا يحبه ولا ويحب له الخير ، وعند الحسَّاد ذوى القلوب المريضة[٣] ؛ **والتحدث** بالنعمة إخبار عن صفات واىٍ هذه النعمة وأنها محض جوده وإحسانه، فالتحدث : ثناءٌ على الله ـ تبارك وتعالى ـ

---

(١) ، (٢) صحيح الجامع .

(٣) مفاتيح الفقه في الدين .

بإظهار نعمه والتحدث بها شكراً له ـ جلَّ وعلا ـ ، قاصداً بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه ، وحث نفسه وغيره على دعاء الله وحده دون غيره ، وعلى محبته ورجائه ، هذا خلاف الذي يستطيل بتلك النعم على الناس ؛ وهو المتكبر [١] .

---

(١) الروح

obeikandl.com

اتبــاع الأنصــار

في البخاري « قَالَت الأَنْصَارُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَتْبَاعٌ وَإِنَّا قَد اتَّبعْنَاكَ فَادعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ أَتْبَاعَنَا مِنَّا ، فَدَعَا بِهِ » وفى رواية أخرى « اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَتْبَاعَهُمْ مِنْهُمْ » .

واليك ـ أخي الحبيب ـ بعضاً من صفات الأنصار، لعلنا نتبعهم فنكون منهم :

[١] **السبق إلى دين الله وإلى الخيرات** : قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

[٢] **حب المؤمنين وسلامة الصدر وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة** : قال الله ـ تبارك وتعالى ـ مخبراً عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ .

[الحشر : ٩] .

[٣] **نصر دين الله عز وجل ونصر رسوله ـ ﷺ ـ** : ففي يوم بدر عقد رسول الله ـ ﷺ ـ مجلسًا عسكريًا استشاريًا أعلى، تبادل فيه الرأي مع عامة جيشه وقادته ، أحب فيه أن يعرف رأي قادة الأنصار ـ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ـ ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص بيعة العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال : « **أشيرو عليَّ أيها الناس** » وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال : والله ولكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ ، **قال : أجل** ، قال : فقد آمنا بك فصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك

بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُر في الحرب ، صُدُق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله .

وفي رواية أخرى أن سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال : « لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم : فاظعن حيث شئت ، وصِلْ حَبْل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غِمْدان لنسيرنَّ معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، فَسُرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بقول سعد ـ رضي الله عنه ـ ، ونشطه ذلك ، ثم قال : **سيروا وابشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم** »[1] .

[٤] الرضا برسول الله ﷺ ودينه وسنته عن كل أعراض الدنيا : فإنه « لما كان يوم حُنين وأفاء الله على رسوله أموال المشركين أعطي رسول الله ـ ﷺ ـ ما أعطي من تلك العطايا لقريش ولقبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القَالَةُ ، حتى قال قائلهم ، لقي والله رسول الله ـ ﷺ ـ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ فقال يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، **قال :فأين أنت من ذلك يا سعد ؟**، قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، فخرج سعد رضي الله عنه فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين

---

(١) الرحيق المختوم .

فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار،فأتاهم رسول الله ـ ﷺ ـ فحمد الله وأثني عليه، ثم قال: **يا معشر الأنصار مقالَةٌ بلغتني عنكم وَجدَةٌ وجدتموها علىَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟** ، قالوا بلي ، الله ورسوله أمَنُّ وأفْضَلُ ، **ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟** ، قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله؟ ، لله ورسوله المنُّ والفضل ، **قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ ، أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسَيْنَاك ، أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدنيا تَألفَّتُ بها قوماً ليُسْلِمُوا ، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟** ، **فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرؤٌ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شِعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار** ، فبكي القوم حتى أخْضَلُوا لحَاهُم ، وقالوا : رضينا برسول الله ـ ﷺ ـ قَسْمًا وحظاً »[1] .

(١) أحمد .

العمل الذي فيه نفع عظيم للمسلمين
وغيظٌ كبير لأعداء الدين

لما تآلبت اليهود مع قبائل العرب ـ الأحزاب ـ وتجمعوا في جيش واحد يبلغ عشرة آلاف مقاتل تقريباً ـ وهو ما يزيد على عدد المسلمين في المدينة جميعاً من شباب وشيوخ ونساء وأطفال ـ لاستئصال المسلمين عن بكرة أبيهم ، استشار رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ، فكانت خطة حكيمة جعلها الله سبباً في رد كيد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا من المسلمين خيراً ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)** ﴾ [الأحزاب : ٢٥] فعن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله ـ ﷺ ـ خطَّ الخندق وجعل لكل عشرة أربعين ذراعاً ،فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان، وكان رجلاً قوياً ، فقال المهاجرون : سلمان منا وقالت الأنصار : بل سلمان منا ، فقال رسول الله ـ ﷺ : « **سلمان منَّا أهل البيت** »(١) .

ولمَّا تهيأ الرومان للقيام بهجوم حاسم لاستئصال المسلمين ، وهى أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان،ومعهم قبائل لخم وجزام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم،في جيش جرار حضَّ رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه على الجهاد وتجهيز الجيش فجاء عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بمائتى بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتي أوقية كان قد جهزهما من قبل للتجارة إلى الشام فتصدق بها،ثم تصدق بمائة بعير بأقتابها وأحلاسها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجر النبى ـ ﷺ ـ ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته رضي الله عنه تسعمائة بعير ومائة فرس،هذا غير النقود ، وهو ما يعادل في مجمله ثلث الجيش

---

(١) الحاكم في المستدرك .

فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقلب هذه النقود في حجره ويقول « **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم** »(١) .

ومن هذا الباب في زماننا هذه الأيام التصنيع التكنولوجي والنووي ، فالأمة اليوم أحوج ما تحتاج إليه في عصرنا هذا ، فلا يعقل أن تبقى أمتنا ـ وهى خير الأمم ـ عالة على غيرها في أدوات أو أسلحة العصر ، يعطونها منها الفتات ويمنعون عنها أحدثه ، يهددونها بل يضربونها بها وليس معها حتى للردع وليس للرد وقد قال ربنا ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

إن تحصيل هذه التكنولوجيا المتقدمة بل والتفوق فيها وفى العلوم الموصلة إليها أصبح اليوم فريضة وضرورة ، فريضة يوجبها الدين ويحتمها الواقع ، بل هي من مقدمة الأولويات للأمة اليوم(٢) .

ومنه ـ أيضًا ـ إعانة المجاهدين المسلمين في كل مكان في العالم في فلسطين والشيشان والعراق و ... بالمال والسلاح والمعلومات وكل ما ينفعهم ... ، مثل فكرة الكباري العائمة وخراطيم المياة والتي مكَّنت المصريين والمسلمين من عبور خط بارليف في العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ ، والذي يعد من الناحية العسكرية من أقوى الموانع تحصيناً على مستوى التاريخ ، وهى فكرة بسيطة قليلة التكلفة .

وكذلك إنتاج صواريخ القسام في فلسطين وهى وإن كانت قصيرة المدى وبدائية إلى حد ما مقارنة بأسلحة الصهاينة فقد مكنتهم بفضل الله ـ تبارك وتعالى ـ من تحرير قطاع غزة والبقية تأتى بفضل الله حتى يتم تحرير كامل فلسطين من دنس الصهاينة ، فقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٢١] ،وقال ـ جلَّ شأنه ـ :﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا** ﴿٦﴾

(١) الترمذي وحسنه.

(٢) في فقه الأولويات .

وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج : ٦-٧] .

ومن هذا الباب مقاومة الحملات التنصيرية في العالم الإسلامي بأسرة ... وخصوصاً في إندونيسيا ودول أفريقيا، وذلك **بالمال** وبالعمل على **تخريج العلماء والأطباء والممرضين** لتوعية الناس وتعريفهم بدينهم ومعالجتهم ؛ حيث يفد إلينا هؤلاء المنصرين - أتباع إبليس - لعنه الله - لإخراج المسلمين من نور الإسلام إلي ظلمات الكفر والإلحاد ، يفدون إلينا بمسوح الرهان وتحتها نفوس قذرة وضمائر خربة وقلوب خلت من كل المعاني الإنسانية - حيث أنهم - كما قلنا - جنود إبليس اللعين ، وهو القائل: ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [ص:٨٢]، ولقد كانوا - لعنهم الله - أساس كل فتنة عمياء حدثت في البلاد الإسلامية بما أثاروه من النعرات الطائفية ودعوات شعوبية ونزعات إقليمية ، بل كانوا سبباً في تخلفها في جميع المجالات .

والمنصرون هؤلاء يعلمون قبل غيرهم بكساد بضاعتهم وفسادها ؛ لذلك فهم يعمدون إلي ترويجها بالأساليب الشيطانية الخادعة والوسائل الملتوية وخلف واجهات مضللة، كما قال سيدهم إبليس: ﴿ **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾** ﴾ [النساء:١١٩- ١٢١]. مثل:

[١] افتتاح المدارس والجامعات: مثل الجامعة الأمريكية والفرنسية والبريطانية و...

[٢] وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة .

[٣] إنشاء المستشفيات والملاجئ وجهود الإغاثة ؛ مثل جمعية الصليب الأحمر وغيرها . . . . . .

ذلك ليصطادوا بها السذج والبسطاء الذين ليس لهم دراية بدينهم إلا القشور، وليتخذوا منها في نفس الوقت أوكاراً للتجسس علي العالم الإسلامي ، بل وتخريج كوادر من بني جلدتنا يتكلمون بلساننا ويعتلون المناصب الهامة في بلادنا وينفذون مخططاتهم وموآمراتهم بإقصاء دين الله وشرعه الحكيم عن الحكم وعن كل نواحي حياة المسلمين ، وينشرون في المقابل الكفر والرذيلة [١].

(١) التعصب الصليبي ـ بتصرف .

obeikandl.com

صلــة الرحـــم

قال رسول الله ـ ﷺ : «الرَّحِمُ مُعلَّقَةٌ بالْعَرْشِ تَقُولُ : مَنْ وَصَلَني وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ اللَّهُ » (١) ، وقال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِه ويُنْسأَ لَهُ في أَثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » (٢) ، وينسأ أي يؤخر، وأثره أي أجله ، وقال أيضاً : « ... صلة الرحم ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار» (٣) .

قال ابن التين ـ رحمه الله ـ ظاهر الحديث يعارض قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الأعراف : ٣٤] .

والجمع بينهما من وجهين :

أحدهما : أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك ، ومثله ما جاء أن النبي ـ ﷺ ـ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر .

ثانيهما : أن هذه الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى عمل الملك الموكل بالعمر، أما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله ـ تبارك وتعالى ـ كأن يقال للملك مثلاً أن عمر فلان مائة سنة مثلاً إن وصل رحمه وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع ، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتاخر ، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد : ٣٩] (٤) .

---

(١) مسلم .

(٢) متفق عليه.

(٣) السلسلة الصحيحة

(٤) فتح الباري.

وصلة الرحم تكون بالزيارة وبالإنفاق وبقضاء الحوائج ... وإن بعدت المسافات فلا أقل من صلة الرحم بالهاتف وبكل وسائل الاتصالات الحديثة .

وقال رسول الله - ﷺ - أيضاً : « **لَيْسَ الْواصِلُ بِالْمُكافِئ وَلكِنَّ الواصِلَ الَّذي إذا قَطَعتْ رَحِمُهُ وصلَها** » (١) قال ابن حجر - رحمه الله - في الفتح قوله - ﷺ - « **لَيْسَ الْواصِلُ بِالْمُكافِئ** » ، أي الذي يعطي غيره نظير ما أعطاه ذلك الغير.

وأولى الناس بالصلة والإحسان الوالدين ، قال الله - تبارك وتعالى - :﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)** ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] ، « وعن عبد اللّه بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألتُ النبي - ﷺ - أيُّ العملِ أحبُّ إلى اللّه تعالى ؟ ، **قال : الصَّلاةُ على وقْتِها** ، قُلْتُ ثُمَّ أيٌّ ؟، **قال بِرُّ الْوالِديْنِ** ، قلتُ ثُمَّ أيٌّ ؟ ، **قال: الجِهادُ في سبِيلِ اللّهِ** » (٢) ، وهذا في الجهاد الذي هو فرض على الكفاية .

« وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ - أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ ، **قال : زوجها** ، قلت : فأي الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ ، **قال : أمه** » (٣) ، وأتى رجل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فقال : إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني ،وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه فغرتُ عليها فقتلتها، فهل لي من توبة ؟ ، قال أمك حية ؟ ، قال : لا ، قال : تب إلى الله - عز وجلَّ - وتقرب إليه ما استطعت ، فذهب رجل فسأل ابن عباس رضي الله عنهما ، لم سألته عن حياة أمه ؟ ، فقال إني لا أعلم أقرب إلى الله - عز وجلَّ - من بر الوالدة (٤) .

وقال رسول الله - ﷺ - : « **إِنَّ أَبرَّ البِرِّ صِلةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ** » ، وفي روايةٍ

(١) البخاري .
(٢) متفق عليه .
(٣) البزار والحاكم ، وإسناده حسن.
(٤) البخاري في الأدب المفرد.

« **إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّي** » (١) .

و« جاءَ رجُلٌ مِنْ بني سَلَمة إلى رسول اللَّه ـ ﷺ ـ فقالَ : يا رسولَ اللَّه هلْ بقي من بِرِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهُمَا به بعدَ مَوْتِهِمَا ؟، **فقال : نَعَمْ الصَّلاَة عليْهِمَا ، والاسْتِغْفَارُ لَهُما ، وإنْفاذُ عَهْدِهِما ، وصِلةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلاَّ بِهِما ، وإكْرَامُ صَدِيقِهِما** » (٢) .

و« أتى رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ ومعه شيخ فقال من هذا الذي معك ؟ ، قال : أبي ، قال : « **لا تمشي أمامه ، ولا تقعد قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستسب له** » (٣) أي لا تكن سبباً في سبّه .

وبر الوالدين والإحسان إليهما يجعل العبد مجاب الدعوة فقد « كَانَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ ، حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ ؟، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ،قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ؟،قَالَ : نَعَمْ، قَالَ : لَكَ وَالِدَةٌ ؟، قَالَ : نَعَمْ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ يَقُولُ : **يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ** " فَاسْتَغْفِرْ لِي،فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ ، قَالَ الْكُوفَةَ ، قَالَ : أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا ؟ ، قَالَ أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ . . . » (٤) .

والعقوق وقطيعة الرحم سببٌ في كل شؤم ، وأعجله في الدنيا والآخرة ، وأعجلها عقوق الأبناء ـ فالجزاء من جنس العمل ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله**

---

(١) مسلم.
(٢) أبو داود.
(٣) الطبراني في الأوسط.
(٤) مسلم .

يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » (١) ، وهو من أكبر الكبائر، فقد قال رسول ـ ﷺ ـ : **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً** ، قلنا بلى يا رسولَ اللّه، قال : **الإشراكُ باللّه ، وعقوقُ الوالدين ، وكان متّكئاً فجلس ، فقال : ألا وقولُ الزّور وشهادةُ الزّور**، فما زال يكرّرها حتّى قلنا ليته سكتْ »(٢)، شفقة عليه ـ ﷺ ـ وقال أيضاً :« **إنّ من أكبرِ الكبائرِ أنْ يلْعنَ الرّجُلُ والديْه** ، قيل : يا رسول اللّه كيْفَ يلْعنُ الرجُلُ والديْه ؟، **قال : يسُبُّ أبا الرّجُل فيسُبُّ أباهُ ، ويَسبُّ أُمَّه فيسُبُّ أُمّهُ »** (٣)، وقال أيضاً : **« ما من ذنب أجدر أن يعجل الله ـ تعالى ـ لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم ، والخيانة ، والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا »** (٤) .

---

(١) البخاري في الأدب المفرد.

(٢) ، (٣) متفق عليه .

(٤) صحيح الجامع .